اعترافات فتاة العصر

لألفريد دى موسيه

بقلم الأستاذ فليكس فارس

الفصل السادس

وفى اليوم التالى ذهبت قبل المشاء الى غابة بولونيا وكانت السماء متلبدة بالغيوم : ولما وصلت الى باب مالو ألقيت عنان فرسى على عنقه ، وذهبت تائها بين الأشجار مستغرقاً أستعيد أقوال ديجنه فى ذهنى ، وما توغلت فى أحد المنعطفات حتى لاحت لى عربة تستقلها إحدى صديقات خليلتى ، فمدت إلىّ يدها لتصافحنى ثم دعتنى الى تناول العشاء معها إذا لم يكن من مانع لدى

وكانت هذه المرأة — وتدعى مدام ليفاسور — قصيرة بدينة شقراء ، وكنت أنفر منها دون ماسبب ، ولكننى لم أملك نفسى من قبول دعوتها ، لأننى كنت أتوقع حديثاً معها عن عشيقتى ، وأمرت رفيق السائق بقيادة فرسى فذهب به ، وجلست أنا قربها وعدنا الى باريس

وبدأ المطر يتساقط ، فأنزلنا الغطاء وأصبحنا فى عزلة ، وقد ساد علينا السكوت ، وكنت أنظر اليها فأشعر بحزن عميق ، لأنها لم تكن صديقة عشيقتى فحسب ، بل كانت أيضاً مستودع أسرارها ، وكثيراً ما كانت تمضى معنا ساعات السمر فأستثقلها وأتمنى أن تخلى لنا المكان . ولعل نفورى منها تولد من صبرى على فضولها . وما كان تساهلها معى ومع عشيقتى ، بل وما كان وقوفها مراراً موقف المدافع عنى تجاهها ، ليمحو سيئة هذا الفضول ، فكنت أراها قبيحة ثقيلة . ولكننى أنعمت النظر فيها هذه المرة فلاحت لى وعليها مسحة من الجمال ، فكنت أحدق فى يديها وأثوابها فأشعر بأنها تحرك ساكنا من فؤادى ، وكانت هى تحدق فىّ فلا يخفى عليها أمرى وما يفعل التذكار بعواطفى ؛ وقطعنا مسافة الطريق وأنا أنظر اليها وهى تبتسم لى . ولما بلغنا المدينة قالت : — وأخيراً . فقلت : — أخبريها إذا شئت ، وانهمر الدمع من عينى

وبعد أن تناولنا المشاء جلسنا أمام الوقد ، فقالت : أقضى الأمر وانقطع كل رجاء ؟ فقلت : وا أسفاه ! إن الأمر المقضى إنما هو فجيعتى ، وستودى هذه الفجيعة بى . ولا أطيل بوصف حالى : لقد امتنع على أن أحبها وأن أحب سواها وأن أعيش بلا حب

واستلقت على مقعدها متراخية وقد لاحت على وجهها علائم الأشفاق ، واستغرقت لحظة كأنها تناجى نفسها وتنصت من قلبها الى أصداء بعيدة ، ثم مدت الىّ يدها فاقتربت منها فقالت : — وأنا أيضاً قد أصابنى ما أصابك ، وتهدج صوتها فقطعت حديثها

إن للمحبة أخوات عديدات أجلهن الشفقة . صافحت هذه المرأة وتدانينا حتى كاد أحدنا

يلتصق بالآخر ، فبدأت تتكلم مثنية على عشيقتى تنتحل لها الأعذار وتوجه إلىّ كلمات الاشفاق ، وازداد حزنى فلم أجد ما أجيبها به ، وذهب بها الحديث الى التكلم عن نفسها ، فأمرّت إلى أن رجلا أحبها ثم تركها منذ أمد غير بعيد بعد أن ضحت فى سبيله صيتها والكثير من ثروتها ، وأن زوجها وهو رجل حقود كان يتهددها . وكانت تذرف الدموع وهى تسرد حكايتها حتى نسيت همى بهمها ؛ ثم استطردت فقالت إنها تزوجت مرغمة فقام النضال طويلاً بين عقلها وعواطفها ، وهى الآن لاتأسف على شىء أسفها لبقائها محرومة من الحب . ولاح لى أنها كانت تلوم نفسها لأنها لم تعمل على الاحتفاظ بقلب عشيقها ، إذ عاملته بشىء من الاستخفاف

وعادت فاستسلمت للصمت بعد أن فرّجت عن قلبها فقلت لها :

— ما هى بالصدف العمياء تلك القوة التى قادتنى الى غابة بولونيا هذا الصباح . إن الآلام البشرية أخوات تآلهات ؛ ولعل هنالك ملاكا كريما يضم هذه الراحات المرتجفة المبسوطة نحو الله تتوسل الى رحمته . لا تندمى على ما بحت لى من سرك ، فما للانسان أن يندم على دمعة ذرفها أمام أى مخلوق كان . وما سرك الذى أودعتنيه إلا دمعة سقطت من عينيك فاستقرت فى فؤادى ، فاسمحى لى أن أرجع إليك أحيانا لنتشاكى ونتألم معاً

وشعرت بعطف شديد يجذبنى الى هذه المرأة وأنا أتكلم حتى رأيتنى مكباً على وجهها أقبلها ، وما خطر لى أنها ستستاء منى ؛ أما هى فبقيت بلا حراك كأنها لم تنتبه الى ما أفعل

وكان يسود سكوت عميق حول البيت التى تقطنه هذه السيدة ، إذ كان يسكن أحد أقسامه مريض ، ففرش التبن على الطريق المجاورة منعاً لفرقعة العربات ، وكنت أنا مطوقاً هذه المرأة بذراعى وقد أذهلتنى عاطفة افتسام الأشجان ، وطالت محادثتنا فكدنا نتشاكى فأشعر أن بين آلامى وآلامها شيئاً من اللذة ، وأسمع صوتاً مواسياً كأنه نشيد سماوى يتعالى من اثنين متوجعين . وكان دمعانا يمتزجان وأنا مكب عليها فما كنت أرى غير وجهها ، ولكنى عند ما تراجعت عنها رأيت أنها كانت فى هذه الأثناء رفعت إحدى رجليها وأسندتها على رف الموقد فانسحب رداؤها حتى بدت ساقها عارية

ولما رأت اضطرابى لهذا المشهد لم تغير وضعها فأدرت ظهرى ليتسنى لها ستر ما انكشف منها فتجاهلت الأمر . فوقفت الى الموقد أتفرس فيها واجماً ؛ وإذ اتضح لى أنها مدركة ما تفعل أدركت بدورى أن هذه المرأة قد شاءت أن تلعب دورها لأغوائى ، فما كانت دموعها وما نقلته عن آلامها إلا اختلاقات تستكمل بها فنها

أخذت قبعتى وتوجهت الى الباب ، فأرخت رداءها على مهل ، فلم أنبس بكلمة بل أومأت مسلماً وخرجت

الفصل السابع

وعند ما رجعت إلى مسكنى وجدت وسط غرفتى صندوقاً كبيراً . وكانت إحدى عماتى انتقلت إلى ربها ولم تكن حصتى من ميراثها

ذات شأن ؛ فوجدت فى الصندوق أدوات وأشياء مختلفة بينها عدد من الكتب القديمة علاها الغبار . وكنت إذ ذاك أتعلل ضجراً ، فرأيت أن أتصفح بعض هذه الكتب ، وأكثرها روايات نشرت فى عهد لويس الخامس عشر . ولعل عمتى وهى من الصالحات العابدات كانت ورثتها من أقارب لها فاحتفظت بها دون أن تطالعها ، لأن هذه الكتب كانت عبارة عن مجموعة دروس فى الغواية والفحشاء

أعهد بنفسى ميلا لا قبل لى برده إلى تحليل جميع ما يقع لى من حوادث سواء أكانت هامة أم تافهة فأطمح دائماً إلى وجود ارتباط بينها فأجىء بتسلسل لها وأنظمها فى سلك واحد كعقد لا بد من ضم شتات حباته . ولعلنى ذهلت مع الوهم إذ أعتقد بوجود علاقة بين حالتى ووصول هذه الكتب ، فاندفعت إلى مطالعتها مبتسما وفؤادى ينفطر حزناً . وكنت أناجى هذه الصفحات قائلاً : إنك دون سواك تعلنين حقيقة الحياة وتجسرين على القول بأن لا حقيقة إلا بالتمتع بالملذات والمراوغة والفساد . كونى لى نعم الصديق وانفثى على جراح نفسى سمومك الكاوية فأتعلم منك أن أؤمن بما تعلنين

وهكذا بدأت باقتحام المسالك المظلمة مهملاً مطالعة دواوين أحب الشعراء إلى ، فملا الغبار كل كتاب كنت أجالسه من قبل كأستاذ اتلقن الحقيقة عنه . وكثيراً ما أخذتنى سورة الغضب فدست على هذه الكتب بقدمى كأننى أنتقم من مؤلفيها فأقول لهم :

— أيها التائهون فى الأحلام ، إنكم لا تعلمون الناس غير الألم . إذا كنتم عرفتم الحقيقة فما أنتم إلا منمقو عبارات مخادعون . وإذا كنتم جهلتموها فما أنتم إلا بلهاء ... وفى الحالين أنتم كاذبون لأنكم أوجدتم من قلب الانسان أساطير ضلال وأوهام . مهلاً ! ! إننى سأدفع بكل ما كتبتم إلى ألسنة اللهيب

وما كنت أجد من منجد لى فى ثورتى غير دموعى فأتيقن وأنا أسكبها أن الحقيقة التى لا حقيقة سواها انما هى الأوجاع والآلام . فأهتف قائلاً : أجيبينى أيتها العبقريات المنقسمة على الخير والشر لأعرف إلى أية ناحية أتجه . أقيمى بينك حكما يفصل فى خلافك فأهتدى من حكمه إلى المنهج السوى

وتناولت توراة قديمة كانت على الخوان ففتحتها قائلا : أجيبنى أنت أيها الكتاب المقدس وامددنى بأحكامك ، فوقع نظرى على الاصحاح التاسع من سفر الجامعة فاذا فيه :

« لأن هذا كله جعلته فى قلبى وامتحنت هذا كله . إن الصديقين والحكماء وأعمالهم فى يد الله . الانسان لا يعلم حباً ولا بغضاً . الكل أمامهم . الكل على ما الكل ، حادثة واحدة للصديق والشرير ، للصالح وللطاهر والنجس ، للذابح وللذى لا يذبح ، كالصالح كالخاطئ ، كالحالف كالذى يخاف الحلف ، هذا أشر كل ما عمل تحت الشمس . إن حادثة واحدة للجميع وأيضاً قلب بنى البشر ملآن من الشر ، والحماقة فى قلبهم وهم أحياء وبعد ذلك يذهبون إلى الأموات »

ما يقول الفلكيون عندما يتنبأون عن مرور مذنب فى ساعة معينة ، وهو الكوكب التائه فى الأفلاك ؟ ما يقول علماء الطبيعة عندما يرون حيوانات سابحة فى قطرة ماء ؟ أيعتقدون بأنهم هم مخترعو ما يتجلى لهم وأن مرصدهم ومجهودهم يضمان للكون نواميسه ؟

ما قال فى نفسه يا ترى من وضع أول شرعة للناس عند ما فتش عن حجر يضعه أساساً لبناء المجتمع فهتف به هاتف من أعماق أحشائه يقول له : إن الحق للقوة . أمن أوجد العدل هو هذا المشترع يا ترى ؟ وهل اخترع العار أول رجل اقتطف الثمر من أرض جاره وأخفاه تحت ردائه متلفتاً يميناً وشمالاً وقد دب الرعب فى قلبه ؟ وما قولك فى صاحب الحقل الذى سُرقت أثماره فحرم نتاج جهوده ؟ يلتقى السارق فلا يرفع عليه يداً بل يشمله بعفوه ويقول له : إليك بما تريد من أثمار حقلى ، فيرد الشرّ بالخير ثم يرفع رأسه الى السماء شاعراً بارتجاف فى قلبه وبدموع فى عينيه وبخشوع يطوى ركبتيه . أترى هذا الرجل أول من اخترع فضيلة المعروف ؟

يالله ! لقد سمعت أذناى امرأة تكلمنى بالحب ثم تخوننى ، وسمعت أيضاً رجلاً يكلمنى عن الصداقة وهو يشير إلى بالانغماس فى حمأة الدنس ، ورأت عيناى امرأة تستخرط فى البكاء ثم تطمع فى مؤاساتى بمضلات سافها ، وهذه التوراة التى تحمل اسم الله تردّ على سؤالى قائلة : — (من يدرى ؟ وأية أهمية لكل هذه الأمور ؟)

وسارعت الى غرفتى المفتوحة أنظر الى الفضاء الفسيح الباهت فى وجومه صارخا : — أصحيح أن العدم وراءك ؟ أجب أيها الفضاء ، أفليس فيك شىء سوى الأوهام تدفع بها الى صدرى وقد مددت اليك ذراعىّ ؟

وكان الصمت العميق يسود جميع ما تطلّ نافذتى عليه

ومرّ طيرٌ بجناحيه السوداوين ذاهباً فى الهواء يصراخ يشبه الأنين فاتبعته بعينى وهو يغرق كالسهم إلى الأفق البعيد ، ثم مرت فتاة صغيرة فى الشارع وهى تغنى

الفصل الثامن

ومع هذا فقد أبت نفسى أن تستسلم لحياة اللهو والاستهتار إذ كنت أتمثلها حالكة مفجعة ، فقررت أن أحاول اجتنابها ، وهكذا اقتحمت كثيراً من الآلام ، وساورتنى مرهقات الأحلام . ولو لم يكن غير حرارة الشباب ما يحول دون شفائى لكفتنى أوجاعاً وجهاداً . فقد كنت أنى توجهت وبلا عمل شغلت نفسى لا أفكر إلا فى النساء . وإذا نظرت إلى إحداهن شعرت بهزة أنتفض لها انتفاضاً . ولكم أفقت من نومى وجسدى يتصبب عرقاً ، فأترامى على جدران غرفتى بشهيق مختنق يطلب الهواء !

لقد كان من خير ما أسعدت به وقلما يسعد الشبان بمثله ، أننى أسلمت عفتى للحب ؛ غير أن هذا الحظ قضى على بأن أشرك طوال حياتى كل شهواتى بعاطفة الغرام . وذلك ما كان يدفع بى إلى الهلاك ، فكنت وقد تسلط على التفكير المستمر بالمرأة لا أملك خيالى من الجموح ليلاً ونهاراً فى مآزق الحب الضلول وفى مهاوى خيانة النساء

امتنع علىّ أن أتصور إمكان الوصال بلا حب ، فكنت لا أنقطع عن التفكير فى المرأة قاطع الرجاء من وجود الحب الصحيح ، فذهبت الآلام فى نفسى مذهباً أورثنى شيئاً من الخبل ، فكنت أشتهى تارة أن أعذب جسدى أسوة بالرهبان لأميت شهواتى ، وتارة أريد أن أندفع إلى الشارع

أو الحقول أو أى مكان آخر لأنطرح على قدمى أول امرأة أصادفها مقسما لها أننى أحبها حباً أبدياً

والله يعلم كم حاولت أن أسلو لأنال الشفاء ، فكان أول ما لجأت إليه انعزالى عن العالم جرياً مع نفورى من مجتمع رأيت جميع الناس فيه يشبهون عشيقتى رزيلة وختـــلا . فرجعت إلى ما كنت أهملت من دروسى فتوغلت فى مجاهل التاريخ واستغرقت مع الشعراء الأقدمين كما عدت أيضاً إلى درس التشريح

وكان يقطن الدور الرابع من مسكنى شيخ ألمانى واسع الاطلاع ؛ فألجأته بالرغم من محبته للوحدة إلى تدريسى اللغة الألمانية ، فبدأ عمله بكل جد وإخلاص ، ولكنه مالبث أن اصطدم بفكرى المشتت ، فكان وأنا أجلس اليه تحت نور مصباحه الضئيل ، يضع كفيه على كتابه ويشخص بى متجلداً متدهشاً ، وأنا سابح فى أحلامى لا أشعر لا بصبره ولا بإشفاقه على حالى وأخيراً قلت له : أنت أطيب الناس قلباً ، ولكننى أرى العبث فيما تحاول . دعنى لما قدر لى ، فما أستطيع أنا ولا تستطيع أنت تبديل هذا المقدور

وما أدرى أأدرك الرجل ما أعنى أم فاته ما ألمح عنه ؛ غير أنه صافحنى بحرارة ، ولم يعد يذكر لى اللغة الألمانية ودرسها

وبدأت أشعر أن العزلة لن تسوقنى إلى الشفاء بل إلى الهلاك ؛ فتحولت عنها إلى طريق أخرى وهجرت المدينة إلى الحقول شاغلاً نفسى بالصيد متوغلاً فى الغابات أقطعها خبباً على ظهر جوادى ، ومارست المبارزة بالسيف مجهداً نفسى حتى الاعياء ، فما كنت أعود المساء إلى مسكنى إلا لأنطرح على فراشى وروائح البارود والاصطبل تنبعث من أثوابى ، فأستر وجهى بلحاف هاتفاً : إليك عنى ، أيها الشبح ... أفما أستريح منك ليلة على الأقل ؟

وما كانت جميع هذه المحاولات لتجدينى نفعاً لأن العزلة أسلمتنى إلى الطبيعة فقذفتنى الطبيعة إلى الحب

وعند ما كنت أرتاد قاعات التشريح ، كنت أرى نفسى محاطاً بالجثث فأمسح يدى بمئزرى الدامى فيعلو وجهى الاصفرار ، وأشعر بأننى أختنق من الروائح الكريهة المنبعثة من الأشلاء الفاسدة ، فكنت أعرض عن النظر إليها لأتمثل أمامى الحقول الخضراء تموج سنابلها ، والمروج يفوح عبيرها فى سكون الغسق ؛ فأقول فى نفسى : لن أجد فى العلم سلوتى ، فإننى باستغراقى فى هذه الطبيعة التى لا حياة فيها سأموت كمن أنقذ من لجة البحر فالف بجلد حيوان سلخ حديثاً لاستعادة الحرارة المفقودة . لقد قضى على بألا أشفى ، فحسبى أن أموت هنالك فى الحقول تحت أشعة الكوكب المنير

وكنت أنطلق على صهوة جوادى قاصداً متنزهات سقر وشافيل ، فأترجل هنالك لأنطرح على مرج نضير ، أو لأتوه فى واد مقفر ، فما كنت أسمع من الأدواح والمروج إلا صوتاً واحداً يقول لى : ماذا أتيت تطلب هنا . . . إنا نرتدى الحلل الخضراء ، وما الخضرة إلا رمز الآمال

فكنت عندئذ أفزع إلى المدينة لأتوه فى أزقتها المظلمة فأتطلع إلى بصيص الأنوار من نوافذ المساكن المقفلة على أسرار الأسر وخفاياها ، ثم أسرح الطرف على العربات تلوح وتختفى ، وعلى المارة تزدحم وتتبدد ، فأرانى بين كل هذا وحيداً شريداً . أشهد الدخان

يتصاعد حزينا من السطوح وأشعر بالآلام تجول فى هذه الأزقة الملتوية حيث يتراكض الناس وقد كالهم عرق الجهود ويتلامس الأنوف دون أن يعرف أحدهم الآخر . فما السبيل العام إلا مزاج تتعارف فيه الأجسام وتتناكر عليه الأرواح ، هنالك لا تمد للغريب يد إلا يد بنات المواخير

إن ما تهتف به المدن إنما هو قولها : — هيا إلى الفساد ... هيا إلى الفواحش ، فما يسكن الآلام سواها

ذلك ما تقوله المدن وما يقرأه المارة مكتوباً بالفحم على جدرانها ، وبالأوحال على أرصفتها ، وبالدم المتجمد فى عروق الأوجه الشاحبة

وكنت أجلس أحياناً على مقعد منفرد فى قاعات المراقص فأنظر إلى النساء يتمايلن بأثوابهن الحمراء والزرقاء والبيضاء وقد عرين المعاصم وضفرن الشعور كأنهن الحور يسكرهن النور فى أجواء التناسق والجمال ، فكنت أقول فى نفسى : — ما أروع هذه الزهرات تقتطف وتستنشق ! وما ستكون كلمة هذه الأقحوانات الأخيرة إذا ما نثرت وريقاتها واحدة واحدة لتستنطقها سرها . أنها لتقول لك — قليلا ثم قليلا ، ثم لا أحبك حتى ولو قليلا

تلك هى حقيقة العالم ، تلك هى نهاية ابتساماتك ، أيتها الأزهار

على هذا الشفير الروع تتمايلن بأوشحتكن المزيفة بالأزهار ، أيتها الراقصات وعلى هذه الحقيقة الشنعاء تتمايلن كالهاعلى رؤوس أرجلكن الصغيرات

وكان دبجنه لا يفتأ يقول لى : — والله ما رأيت سوالك من ينظر بجد إلى كل هذه الأمور . إنك ترفع عقيرتك شاكيا لفراغ الحق من شرابه ، وإذا فرغ الحق ففى الأقبية من الشراب دنان ، وإذا فرغت الدنان فالروابى مكسوة بالكروم تعتصر لتملأها . اتخذ لك من الكلام المعسول صنارة وتقدم إلى نهر السلوان متصيداً فيه امرأة جميلة تلهو بها حتى إذا أفلتت من يدك لا يفوتك اصطياد سواها . تمتع بالحب الذى تتوق إليه بكل جوارحك ، ولا تضيع أيام شبابك ، ولو كنت أنا مكانك لكنت اختطفت ملكة بدلاً من التاهى بدرس التشريح . هذه النصائح التى كنت أسمعها فى كل حين ، وعند ما كان يحين زمن الرقاد كنت أتلفع بردائى وقلبى يكاد يتفجر ألماً ؛ فأهرع إلى سريرى لأجثو أمامه باكياً مصلياً ضارباً على هذا القلب كما كان غاليله يضرب الأرض قائلاً : ومع هذا فانها تتحرك ...

(يتبع) فيكس فارس

رفائيـــل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثمن ١٢ قرشاً